جامعة القرية

للدكتور سيد فهمى كريم

فى ميدان المؤتمرات العالمية ، حيث تتبارى الدول لتحوز كل منها قصب السبق فى مرافق النهضة العالمية فى مختلف نواحيها ، أدهشنى أن أسمع اسم مصر يتردد فى كلمة الافتتاح ، فى مؤتمر لم يكن يخطر على بال أنه سيكون لها فيه صوت ؛ وهو مؤتمر التعليم الالزامى ومحو الأمية — فبينما تقف دولة كسويسرا لتفخر بمرور مائة عام على اعلان الحرب على الأمية بين جميع طبقات الشعب ، ومرور ما لا يقل عن ربع قرن على محو الأمية تماما تعلن فى المؤتمر وثيقة بأن مصر كانت أول دولة فى التاريخ وضعت برنامج التعليم الالزامى وترجع تلك الوثيقة التاريخية المخطوطة على ورق البردى ، والمحفوظة بمتحف برلين ، إلى عهد الملك اخناتون ، أى إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وحملت بين طياتها رسالة أو برنامجا يعد مفخرة للعصر الذى ترجع اليه ، والذى أطلق عليه " العصر الذهبى " .

بجانب ما جمعته تلك الوثيقة ، أو الرسالة ، من أنواع مختلفة من العقوبات ، بلغ أقصاها مصادرة أملاك رب العائلة الذى يقصر فى إرسال أولاده وبناته للمدارس ، لتتولى الحكومه من ناحيتها الصرف على تعليم الأولاد . جمعت إلى جانب ذلك برنامجا شاملا للتعليم ، برنامجا عمليا للنهضة بالحرف والمهن والفنون ، يساعد على إتقانها ورقيها بالتوريث فأجبرت ابن التاجر أن يتعلم العلوم الحسابية والتجارة ، وابن الفلاح أن يتعلم القراءة والزراعة وابن الجندى يتعلم الفنون الحربية ، وهكذا حتى تعم النهضة جميع النواحى ، وتزدهر جميع المهن ؛ ولا تتكون العصبية القومية إلا إذا عمل كل فرد وتعلم كيف يفخر بوطنه الصغير أو مهنته . كان هذا من ثلاثة آلاف عام أو أكثر .

لم أسرد هذه القصة لأقدم للقارئ مادة للتفاخر بما قام به أجدادنا الاقدمون . فكثرة التفاخر بما عمله الأقدمون سوف لاتعيى موتاهم بل تميت أحياءنا كما يقول المثل المعروف ان " التعلق بطرز الماضى والتغنى بها سوف لايزيد سطرا فى صفحة تاريخها الثقافى بل سيمحو سطورا من تاريخ عصرنا وثقافته " .

والآن لنرجع إلى ما قلنا نحن باعداده لمحاربة الأمية فى عصرنا الحديث وأى برامج وضعناها ؟ وعلى أى أساس درسناها ؟ وما هى ثمرتها الموجوة ؟ .

بدأنا بالتعليم الإلزامى أى إلزام الفلاح أن يتعلم . . إلزام الفلاح ترك فأسه وحقله لإبدالها بالقلم والورقة . . إلزامه بترك قريته وأرضه إلى المدينة . . لأن القرية ليست ميدانا للتعلم فكانت النتيجة التى لايمكن تجاهلها أن شلت اليد العاملة فى القرية ، واستدت إلى المدينة للبحث عن عمل بها . . ولما لم تجد عملا إمتدت لتزعزع الأمن .

. . وأكملنا التعليم الإلزامى بالتعليم المجانى ، وهو الخطوة الارتجالية الثانية ... إن لكل أرض بذورا . فاذا أردنا أن نجنى ثمرا يجب أن نختار البذور التى توافق طبيعة الأرض .

فالبذور التى تكون قد أثمرت فى أرض ربما لاتجنى منها فى أرض أخرى سوى أعشابا لافائدة منها . وما يصلح من برامج الإصلاح فى بلد قد لايصلح فى بلد آخر .

يجب أن نعرف معنى كلمة الأمية وموطنها قبل أن نضع برامج مكافحتها ومحوها — ليست الأمية هى جهل القراءة والكتابة فحسب ، بل الأمية هى الجهل من جميع نواحيه ، من معيشة ثقافية وصحية واقتصادية وتعليمية وتكوينية . . أى الجهل بمعنى الوجود .

إن محو الأمية معناه رفع مستوى القرية فى جميع تلك النواحى متوازية . . يجب أن يشمل كل كائن على أرض القرية : يشمل الرضيع والشيخ . . الرجل والمرأة . . الطفل واليانع . . البيت والأرض . . الحيوان والنبات .

إن تعليم الفلاح معناه أن نعلمه كيف يقدس وطنه الصغير الذى هو قريته ، وكيف يزداد تمسكا بها ولا يتأتى ذلك الا إذا أحس أنها تسايره فى نهضته — وأنها تنفض غبار الأمية معه جنبا إلى جنب — عندما يشعر أنها جزء منه لايتجزأ — عندما يشعر أنها تسابقه لتعمل على إسعاده كلما مد يده لإسعاده .

سوف لايهجرها إلى المدينة . . بل سيزداد بها تمسكا ، ويحاول أن ينافس بها المدينة كما هى الحال فى كثير من دول أوربا الزراعية كسويسرا وهولندا والسويد . وقد ناديت أكثر من مرة ، فى المؤتمرات وعلى صفحات الجرائد من عدة سنوات ، بضرورة وضع برامج لمحو الأمية يتفق مع ظروفنا التى تختلف عن ظروف جميع أمم العالم الأخرى التى نحاول تقليدها وارتجال برامجها .

فمحو الأمية علميا لايتأتى الا برفع مستوى القرية ككتلة واحدة ، هذا لايمكن تحقيقه الا بالتعاون الإصلاحى ، أى أن تشترك جميع الهيئات الخاصة بنواحى الاصلاح فى وضع برنامج مشترك يضم جميع النواحى الأمية من معيشية وثقافية وتعليمية وصحية وزراعية واقتصادية الخ ، تتعاون كلها متضامنة حتى لايقوى عضو ويبقى الآخر مشلولا فتعوق الجسم من الحركة — الحركة للخروج من ظلمات الأمية — تتعاون فى بناء " جامعة القرية " أى التى تجمع بين جميع نواحى الإصلاح مشتركة .

ولما كانت شركة وادى كوم أمبو التى تبلغ مساحة أراضيها ٧٠ ألف فدان فى مقدمة الشركات الزراعية التى بدأت فى وضع برامجها الانشائية والعمرانية لما بعد الحرب ، وهى التى أقوم بوضع برنامجها المعمارى ، فقد أتيحت لى الفرصة لاخراج مثل هذا البرنامج إلى حيز الوجود ، فشمل برنامج الإصلاح العمرانى إنشاء مجموعة من تلك " الجامعات القروية " موزعة على عدة مدن وقرى وضعت تصميمات أربعة منها موزعة على مدينة كوم امبو وقرى

السلسلة والسبيل والمنشية . وقد بدأ العمل فى العيف الماضى فى تنفيذ الأولى منها ، وقد أوشكت مبانيها على الانتهاء وقد افتتحت أبوابها منذ أسابيع .

أما رسالة تلك " الجامعة القروية الصغيرة " ، أو برنامج كفاحها لمحو الأمية ، فستتولى شرحه محتويات المدرسة نفسها كما هو مبين فى مسقط مدرسة كوم امبو التى تم تنفيذها والتى تحوى من المبانى والمشتملات ما يلى :

(١) فصول الدراسة — ويختلف عددها تبعا لعدد سكان المدينة أو القرية وسعة المدرسة. وفى حالة مدرسة كوم امبو فهى تحوى ثمانية فصول لكل منها فرانده أو حديقة صغيرة من الجازون تظللها شجرة من أشجار الجميز أو السرسوع حتى يمكن مباشرة التعليم فى الهواء الصحى الطلق كلما ساعدت الظروف الجوية على ذلك

وقد روعى فى بناء الفصول جميع الاشتراطات الصحية من تهوية طبيعية مستمرة و إضاءة صحية رغم كونها قد بنيت بمواد بناء القرية الأولية ، وقد أعدت ليتعلم فيها البنين والبنات مختلف المبادئ التعليمية الأولية من قراءة وكتابة وحساب وعلوم دينية واشتراطات صحية وأشغال يدوية مختلفة .

(٢) سوق النماذج — وهى مجموعة من حجرات الحرف النموذجية ، أو عبارة عن معرض دائم لتعليم الحرف العملية اللازمة للقرية والتى تتفق مع المنطقة وخاماتها الأولية ففى تلك المدرسة جمعت النماذج بين صناعة النسيج والسجاد وصناعات الجر وما يرتبط بها من الأثاث الريفى اللازم لبيت الفلاح والنجارة والحدادة وفن الخوط ثم صناعة الفخار والخزف القروى وما يتبعه من فنون زخرفية أولية — وكل حجرة من حجرات النماذج على شكل حانوت صغير به آلات الصناعة اللازمة وركن لتمرين الطلبة وفرانده مظللة للتمرين فى الهواء الطلق. وتبعا لميل الأطفال الطبيعى يمكن توجيههم نحو إحدى تلك الحرف — أما من ناحية المدرسون فقد وضع لهم برنامج عملى يعد الأول من نوعه فتدرس كل حرفة ستسند إلى صانعها فى القرية بعد أن تقوم الحكومة بارشاده إلى الطرق العلمية الصحيحة لممارسة الحرفة والتى من شأنها النهوض بها و يقوم كل صانع بعمله اليومى داخل سوق المدرسة كما يقوم كل منهم بعرض مصنوعاته الدقيقة فى سوق موسمى والذى سيتحول بالتدريج إلى أن يصبح عيدا قوميا لصناعات أهل القرية المحلية كما هو الحال فى كثير من بلدان أوروبا والتى يرحل أهل المدن والقرى المجاورة لزيادة القرية فى عيدها الصناعى وما يعود على القرى إقتصاديا و اجتماعيا من ذلك التبادل والتعاون .

(٣) المزرعة النموذجية والمعرض الزراعى — ومهمتها إرشاد الفلاح وتوجيهه فى مختلف أطوار سنه إلى كل ما فيه رفع مستواه الزراعى وزيادة مستوى أرضه الإنتاجى والسير بهما مع خطوات تطور العالم الزراعى ، فلا يقف الفلاح آلاف السنين لا يتحرك بجانب محراثه وشادوفه ، ويشقى ليشقى أرضه معه .

(٤) القسم البيطرى ومزرعة الدواجن : ويشمل هذا القسم كل مايختص بالإرشادات الصحية البيطرية وتربية المواشى والعناية بها ويحوى مجموعة من الزرائب النموذجية المختلفة والوحدات العلاجية البيطرية وكذلك حديقة أو مزرعة للدواجن بأنواعها وتربية النحل . وتربط القسمين ببعضهما قسم صناعة الألبان والجبن وكل مايرتبط بالدواجن والماشية من صناعات ريفية اقتصادية .

(٥) الوحدة الصحية : وهى وحدة علاجية عبارة عن عيادة خارجية ذات برنامج علاجى منتظم ، تقوم بعلاج أبناء القرية ومراقبتهم صحيا ثم تساهم فى نفس الوقت فى الإرشاد الصحى العملى لكل من المدرسة والندوة والقرية . كما أن بها نقطة صغيرة للاسعاف وأجزخانة وقسما لرعاية الطفل . وتقع ملاصقة لمدخل المدرسة وفى وضع مركزى بالنسبة لمبانى مساكن القريه . وتحوى الوحدة بجانب ناحيتها العلاجية مجموعة من الحمامات تقوم بدور صحى منظم لكل من سكان القرية من الطفل الرضيع الى الشيخ للرجال والنساء .

(٦) صالة الاجتماعات والاحتفالات : وهى أساس فى تثقيف رجال القرية وشيوخها ولذا فقد أعدت لتكون على شكل مقهى ريفى تسند إدارته الى صاحب مقهى القرية حتى يجتمع فيه القرويون على طبيعتهم عند الانتهاء من عملهم . وفى هذه الصالة (المقهى) سيستمع القرويون إلى الراديو الذى سيلعب دورا حيويا فى محو أميتهم ، بل يمكن عمل محطة خاصة للاذاعة تقوم بتلك الرسالة . وفى ذلك المقهى الذى به مسرح صغير يمكن إرشاد الفلاح علميا وعمليا وعرض الأفلام السينمائية . وقد اختير وضع المقهى ملاصقا للوحدة العلاجية كما أعدت لتستعمل فى نفس الوقت كمطعم شعبى فى حالات الطوارئ يخدم مطبخه كلا من المدرسة والمقهى .

(٧) الساحة الشعبية والملاعب : الدور الذى تلعبه الرياضة فى الثقافة ونهضة الشعوب دور لاحاجة لشرحه . وتشمل أنواع الألعاب الرياضية ما يوافق طبيعة القرية وجو موقعها .

بين جدران تلك " الجامعة الريفية " سيجد كل شخص فى القرية مكانه ، كل فى وقت فراغه ، ستدخل عائلة القرية بأكملها وما عندها من ماشية وطيور الى تلك الجامعة لتخرج منها وقد خلعت رداء أميتها متكاتفة .

يجب أن تجتمع تلك الوحدات مشتركة تحت سقف واحد ، أى يجب أن تتعاون جميع الهيئات التى ستحمل رسالة إصلاح الفلاح من وزارة المعارف إلى وزارة الصحة إلى وزارة الشؤون الإجتماعية إلى الشؤون القروية ، يجب أن تتعاون كلها على محو الأمية ووضع برنامجها . فكيف نعلم الفلاح التعاون وهو أهم ناحية من نواحى النهضة الثقافية والإقتصادية إذا كان

ذلك التعاون معدوما بين هيئات الإصلاح نفسها ، وتريد كل أن تعمل مستقلة ببرنامجها ومبانيها وجنودها واقتصادياتها ؟

وأخيرا تأتى الناحية الاقتصادية فى تحقيق مثل هذا البرنامج — فما لا شك فيه أن تعاون جميع الهيئات السابقة الذكر واشتراكها فى وضع برنامج واحد إنشائى وادارى سيوفر ما لا يقل عن ٤٠٪ من المجهودات والنفقات .

هذه إحدى ساقى المشروع والساق الأخرى هى الناحية الانشائية من حيث طريقة البناء التى سيخرج بها إلى حيز الوجود ، فكما أن تلك الجامعة ستساهم فى نهضة جميع مرافق حياة القرية فيجب أن تكون فى فن بنائها قدوة لساكن القرية ليتقدى بها فى مبانيه فطرازها هو طراز العصر الذى سيحسن الفلاح بضربات نبضه ، ومواد بنائها من المواد الأولية لبناء القرية والتى فى متناول يده — فاستعمل فى بناء مدرسة كوم امبو مثلا دبش المنطقة الجبلية المحيطة بالوادى والطوب التى فى بناء الحوائط وقباب الأسقف والعقود والقباوى الطوبية وأخشاب النخيل وجريدها والغاب وأخشاب الأشجار والتى أمكن منها مجتمعة بناء تلك المجموعة الفنية الزخرفية — كما ساهمت يد الطبيعة بما قدمته من أشجار ونبات وزهور وأبسطة من الحشائش الخضراء ساهمت فى استيفاء كثير من الاحتياجات والمطالب من عملية وزخرفية — وبذلك ضربت المبانى رقما قياسيا جديدا من حيث تكاليف الإنشاء والتى إذا أضيفت الى الاقتصاد فى الناحية الادارية السابق شرحها لامكن تحقيق ذلك البرنامج العملى فى محو الأمية .

سيد فهمى كريم

فى شريعة الوحش لا تتصافح الكفان ما دامت بينهما فريسة . . . ولكن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يتصافح بيد و يلطم باليد الأخرى .

(الزيات)